التمهيد :

أولاً : الزمان لغةً واصطلاحاً

في لسان العرب (**الزّمنُ والزمّانُ اسم لقليل الوقت وكثيره ، والجمع أَزمُنٌ وأَزمانٌ وأَزمنةٌ ، وزَمَنٌ زامِنٌ : شديد**)[١] .

وفي المعجمات الأخرى كان الأمر مشابهاً وربما مطابقاً لذلك ، ففي المعجم الوجيز نجد (**الزَّمَانُ : الوقت قليلهُ وكثيرهُ . والجمع أزِمنةٌ ، وأَزمُنٌ . والزِّمَّانَةُ :مرضٌ يدوم . الزِّمَنُ : الزَّمَانٌ ، الجمع أزمانٌ ،وأزمُنٌ**) [٢] .

أما في الإصطلاح ، فللزمن معانٍ مختلفة ومتنوعة ، ولو أراد الباحث معرفة ماهية الزمن على وجه الدقة واليقين ، لأمضى زمناً طويلاً ، ولن يقف على الحقيقة في معنى " الزمن " أو " الزمان " .

(**إن الزمن يمكن إعتباره ، بمعنى من المعاني مطلقاً ، أي أنه لا يمكن تفسيره أو تعريفه بمصطلحات أساسية ؛ لأنه هو نفسه أحد الوجوه الأولية التي لا يمكن اختزالها ....، وبالعكس يمكن اعتباره نسبياً ، أي إن له قيمة معرفية فقط عندما ينسب إلى ظواهر محسوسة**)[٣] .

وصعوبة تحديد ماهية الزمن تتجلى في مقولة القديس أغسطس[٤] عندما يقول :

---

١ – لسان العرب ، للإمام العلامة أبن منظور (ت ٧١١) هجرية ،المجلد الرابع ، طبعة مراجعة ومصححة ، دار الحديث ، القاهرة مادة (ز.م . ن) .

٢ – المعجم الوجيز ، مجمع اللغة العربية ، طبعة خاصة بوزارة التربية والتعليم ، جمهورية مصر العربية ، ١٩٩١ م : ٢٩٢ .

٣ – الزمن والرواية ، أ.أ مندلاو ، مراجعة إحسان عباس ، ط ١ ، دار صادر للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٩٧ م : ١٦٩ .

٤ – القديس أغسطس (٣٥٤ – ٤٣٠ م) كاتب وفيلسوف من أصل افريقي لاتيني . يعد أحد أهم الشخصيات الدينية المسيحية المؤثرة ، أبوه وثني وأمه نصرانية ، تلقى تعليمه في روما ، ويعد مؤلفه " الاعترافات " أول سيرة ذاتية في الغرب .

ينظر : الشبكة العنكبوتية / موقع ويكيبيديا " الموسوعة الحرو " .

(ولكن ماهو الزمن ؟ إذا لم يسألني أحد عنـــه فـــإنني أعرفـــه ، وإذا أردت أن أشرحه لمن يسألني عنه فإنني لا أعرفه)[١] .

نفهم من ذلك أننا نفهم الزمن **إذا** قرناه بشيء ما ، فما بين البداية والنهاية زمـــن ، والعمر زمن ، ونعرفه من قدم الأشياء وحداثتها ، ومن بقاء الأشياء ونفادها .

ثانياً : المكان لغة واصطلاحاً

ورد في لسان العرب (**المكانُ الموضع ، والجمع أَمكنة كقَذال وأقذلة ، وأماكن جمع الجمع)**[٢] .

أما في المعجم الوجيز فورد باللفظ نفسه **(المكان : الموضع)**[٣] .

أما المكان اصطلاحاً فقد خضع لتعريفات عدة ؛ لأن المكـــان دون غيـــره يولـــد إحساساً بالمواطنة ، وإحساساً آخر بالزمن والمحلية ، حتى كأنه كيـــان لا يحـــدث شيء بدونه (**فقد حمله بعض الروائيين تأريخ بلادهم ، ومطـــامح شخوصـــهم ، فكان وكان : واقعيا ورمزاً تاريخياً قديماً وآخر معاصراً : شرائح وقطاعات مدناً أو قرى : حقيقية ، وأخرى مبنية على الخيال ، كياناً تتلمسه وتـــراه ، وكونـــاً مهجوراً أغرقته سديميات لا نهاية لها)**[٤] .

فقد كان المكان بالنسبة لباشلار[٥] هو المكان الأليف ، والبيت على وجه الخصوص الذي نعود له في أحلامنا (**يشكل البيت مجموعة من الصور التي تعطي الإنسان**

---

١ – الزمن والرواية : ١٨٢ – ١٨٣ .

٢– لسان العرب ، مادة (مكن) .

٣ – المعجم الوجيز : ٥٨٨ .

٤ – الرواية والمكان ، ياسين النصيّر ،منشورات وزارة الثقافة والإعلام ، جمهورية العراق ، ١٩٨٠ م : ٥ .

٥– غاستون باشلار " ١٨٨٤ – ١٩٦٢ م " واحد من أهم الفلاسفة الفرنسيين ، وهناك من يقول بأنه أعظم فيلسوف ظاهري ، وربما اكثرهم عصرية ، فقد كرس جزءاً من حياته وعمله افلسفة العلوم ، وقدم أفكاراً متميزة في مجال الابستمولوجيا .=

براهين التوازن أو أوهامه ، ونحن نعيد تخيل حقيقتها بأستمرار ... يعني أن نصف روح البيت ، إنها تعني وضع علم نفسي حقيقي للبيت)[١] .

أما حسن بحراوي[٢] فيرى (**المكان بوصفه شبكة من العلاقات والرؤيات ووجهات النظر التي تتضامن مع بعضها لتشيد الفضاء الروائي الذي ستجري فيه الأحداث)**[٣] .

وهناك تعريفات اصطلاحية أخرى لا تخرج عما ذكرناه في شيء .

ثالثاً : الزمان والمكان في الأدب العربي

للزمان والمكان جذور راسخة ، وقدم ثابتة في تاريخ أدبنا العربي ، فإذا ما فتحنا سفر ذلك الأدب الضخم ، ففي مقدمته يوجد العصر الجاهلي ، ذلك التراث الثري الذي تناولته أقلام الكتاب والدارسين بكتب ودراسات لا يمكن حصرها ، ومازال ذلك العصر مثار إعجاب الباحثين ؛ لامتلاكه بريقاً خاصاً وطعماً مميزاً لا يخفى على العين الناقدة والذائقة الأدبية .

= ترجمت معظم كتبه إلى العربية ومنها جماليات المكان " ١٩٥٧ م " .ينظر: الشبكة العنكبوتية / موقع ويكيبيديا " الموسوعة الحرة" .

١ – جماليات المكان ، جاستون باشلار ، ترجمة غالب هلسا ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ، ١٩٨٠ : ٥٤ .

٢ – حسن بحراوي " ١٩٥٣ م" ولد في مدينة المحمدية بالمغرب يعمل استاذاً بكلية الآداب بالرباط ، تتوزع كتاباته بين الكتابة القصصية والنقد الأدبي .

الشبكة العنكبوتية /

uemnet.free.fr/guide/ba/ba٠٦.htm

٣ – بنية الشكل الروائي ، حسن بحراوي ، ط ١ ،المركز الثقافي العربي ، بيروت ، ١٩٩٠ م ، : ٣٢ .

أقول إذا مارجعنا إلى ذلك العصر ظهر أمامنا الشعر مارداً عملاقاً لـــه حـــضوره المتميز ، فكان الإعجاب به شديداً ، وأثره في النفوس بالغاً ، وأهم ما يتميز به هذا المارد هو وجهه المشرق المتمثل في مقدمات القصائد .

وإذا ما تركنا المقدمة ، ولجنا إلى أعماق القصيدة عبر الرحلة ، التي من خلالهـــا يتكلم الشاعرعلى رحلته على ناقة أو فرس في الصحراء ، وما يعانيه من مشاق ، سواء بالليل أم بالنهار ، وفي معرض حديثه عن تلك الرحلة لابد من التطرق إلى الزمان والمكان وأثرهما في نفسيته ، وإذا ما أوغلنا اكثر لنصل إلى الغرض الذي من أجله قيلت القصيدة ، برز أمامنا الوصف كالطود الشامخ يلقي ظلالـــه علـــى جميع الأغراض الشعرية من مديح وهجاء وفخر ورثاء ..الخ .

وفي هذا الوصف يمكننا أن نرصد أزماناً كثيرة وأماكن متنوعة متشربة في تلـــك الأغراض ، وإذا ما تركنا الغرض ووصلنا إلى آخر القصيدة نقرأ أبيات الحكمـــة التي كثيراً ما تحذر من نوائب الزمان وتثير الحنين إلى المكان .

ومن كل ذلك نستنتج أن الطبيعة كانت ملهمة بدرجة كبيرة للشعراء الجاهليين **(فلم يتركوا كبيرة ولا صغيرة في صمتها ولا في حركتهـــا دون أن يرســـموها فـــي أشعارهم ، فهم يصورون فلواتها بكثبانها ورمالها وغدرانها وغيثها وســـيولها وخصبها ونباتها وأشجارها وحيوانها وطيرها وزواحفها وهواجرها ،ومـــا قـــد ينزل ببعض مرتفعاتها وأطرافها من البرد وقوارصه)**[١] .

ونترك العصر الجاهلي لنصل إلى العصر الإسلامي ، فقد بقى شعراؤه محافظين على نسق القصيدة الجاهلية على الأغالب ، واكتست الأغـــراض الـــشعرية حلـــة العقيدة ،فأصبح الهجاء من أجلها والمديح في سبيلها ، والفخر منها ولهـــا ، ممـــا أعطى الشعر الإسلامي روحانية إلى جانب الحسية التي انتقلت إليه من العـــصر الجاهلي ، فكان أن وصفوا زمن البعثة النبوية بمشاعر ملأها الإيمان ، أما ســـوح القتال فقد اكتسبت في ظل الإسلام معاني جديدة ، عبر بها الشعراء عـــن عمـــق

---

١ – تاريخ الأدب العربي العصر الإسلامي ، د . شوقي ضيف ، ط ٢٠ ، دار المعارف ، القاهرة ، ٢٠٠٢ م :٣٨٥ .

العقيدة الجديدة ، فخلدوا ذلك الزمان وتلك الأماكن بشعر كثير ورائع ، عندما نقرؤه في الوقت الراهن يستطيع أن ينقلنا إلى ذلك الزمان الجميل وتلك البقاع المقدسة .

(فقد أتم الله على هؤلاء الشعراء نعمة الإسلام ، وانتظم كثيرون منهم في صفوف المجاهدين في سبيل الله داخل الجزيرة العربية وفي الفتوح ... يريدون أن ينشروا نوره في أطباق الأرض ، وقد مضوا يصدرون عنه في أشعارهم صدور الشذا عن الأزهار الأرجة)[١] .

ويكاد يتشابه العصر الأموي مع العصر الإسلامي في هذا الشأن ،**(وجاء عصر الفتوح وجاءت معه الغنائم الوفيرة ، فاقتنى العرب الضّياع وشيدوا القصور ، وهم في ذلك لا ينسون تعاليم الإسلام)**[٢] .

فعاش الشاعر في هذا العصر في بيئة متحضرة ، إلا أنه ظل يفتتح كثيراً من قصائده بالوقوف على الأطلال وبكاء الديار والحنين ، فلقد أصبح هذا الوقوف تقليداً متبعاً لدى معظم الشعراء ، لكن هذا الوقوف اتخذ شكل الرمزية في هذا العصر أكثر منه حقيقة واقعة **(أما الأطلال فلحبهم الداثر ، وأما رحلة الصحراء فلرحلة الإنسان في الحياة ، وقد استغلوا ما كان يصحب الأطلال من حنين لذكريات حبهم ومعاهده لا يزال يترقرق في أشعارهم)**[٣] .

أما الحديث عن العصر العباسي وأدبه فحديث طويل ذو شجون ، ذلك انه عصر طويل نسبياً إذا ما قارناه ببقية العصور الأخرى ، حدث فيه كثير من التطور على جميع الصعد ، ومنها الصعيد الأدبي فقد وجد في هذا العصر من ينادي بالتجديد والخروج على تقاليد القصيدة العربية ، هذا التطور دفع كثيراً من الباحثين إلى دراسة أسبابه وتحديد إتجاهاته .

---

١ — تاريخ الأدب العربي العصر الإسلامي : ٥ .

٢ – المصدر نفسه : ٣٧٠ .

٣ – تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الأول ، د . شوقي ضيف ، ط ١٦ ، دار المعارف ، القاهرة ، ٢٠٠٤ م : ١٦٣ .

وقد برز في هذا العصر بعض الشعراء ذوي أصول غير عربية ، حاول بعضهم التجديد في الموضوعات الشعرية لغرض البحث عن المعاني الجديدة والمبتكرة ، أما البعض الأخر فقد حاول السخرية والإستهزاء من تلك التقاليد خصوصاً الوقوف على الأطلال من امثال " أبي نواس" .

ومن هذه الموضوعات المبتكرة الوقوف على أطلال القصور ، بعد أن كان الشاعر يقف على أطلال الخيمة ، وهذه نتيجة طبيعية للتطور الحاصل في هذا العصر (**وهذا الموضوع الجديد هو الذي ألهم البحتري فيما بعد سينيته المشهورة في إيوان كسرى**)[١] .

وعلى الرغم من التطور الحاصل في مجالات الحياة شتى ، واتساع مدارك الشعراء بسبب اطلاعهم على مختلف العلوم والفنون للشعوب الأخرى ، فإننا نجد الشاعر في هذا العصر كثير الشكوى من نوائب الزمان (**وقد رأينا أبا تمام يخلط بعض مقدمات مدائحه بالشكوى من الزمن ونوازله ، وقد نظم هو نفسه قصائد خصها ببث شكواه من الدهر وهمومه ، وشركه في ذلك بعض الشعراء ، مما جعل هذا الباب يتسع منذ هذا العصر ويصبح أحد الموضوعات الأساسية في دواوين الشعراء**)[٢] .

وإذا ما انتقلنا إلى العصر الأندلسي وجدنا الإهتمام بالمكان والزمان على نحوٍ واضح ومكثف ، تمثل في اهتمامهم بالطبيعة الساحرة ، لقد منح الله الأندلس طبيعة فاتنة ،فكانت من أجمل بقاع المسلمين وأغناها ، إنعكس هذا الجمال على الشعراء فهاموا بها حباً حتى ملكت عليهم شغاف قلوبهم ، فأخذوا ينظمون شعراً في هذه الطبيعة كأروع ما يكون النظم ، ومن أبرز شعرائهم في هذا الشأن "ابن خفاجة ". ولم يكن جمال الطبيعة الخلابة السبب الوحيد في انتشار شعر الطبيعة

---

١ – تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الأول : ١٨٣ .

٢ – المصدر نفسه : ١٨٦ .

حتى شكل ظاهرة في هذا العصر ، فقد كان للحياة اللاهية التي يرفل بها الشعراء أثر كذلك في انتشار هذا النوع من الشعر[١].

لم تكن هذه الظاهرة الوحيدة التي لها ارتباط بالزمان والمكان في هذا العصر ، فقد كان للنكبات والويلات التي ابتليت بها تلك البلاد أثر واضح في نفوس أبنائه ولاسيما الشعراء ، فكان ظهور رثاء المدن والبكاء عندهم ثورة لدى معظم شعراء في الأندلس ، وقد تفجرت هذه الثورة (**يوم سقوط " أشبيلية " بيد الإسبان عام " ٦٦٤ " هجرية ، وقد أثار هذا السقوط موجة من الغضب والكره للأعداء في صدور معظم الشعراء ، ورافقهم في هذا ، شعور بفقدان الأمل وأخذ العبرة والحكمة من الزمن ، فالعيش الرغيد لا يدوم ، ومصير كل شيء حتماً إلى الزوال**)[٢] ، وهذا ما عبرت عنه نونية " أبي البقاء الرندي " خير تمثيل .

وهكذا أينما شرّقنا وغرّبنا في كل تلك العصور نجد لهذين العنصرين بالغ الأثر في تاريخ أدبنا العربي.

ولأن التاريخ الأدبي تاريخ خصب وبالغ الثراء فلا يمكن الإلمام بأثر الزمان والمكان فيه بهذه الوقفة السريعة ،ولأن الأدب الجاهلي رأس الأدب فقد آثرت الباحثة تسليط الضوء على مدى عمق عنصري الزمان والمكان في العصر الجاهلي ، وبذلك يمكننا أن نتصور أثرهما في العصور اللاحقة .

١- ينظر : في الأدب الأندلسي ، دكتور جودت الركابي ، ط ٦ ، دار المعارف ، القاهرة ، ٢٠٠٨ م :١٢٤ .

٢- شعر الحروب والفتن في الأندلس " عصر بني الأحمر " ، رانية أحمد إبراهيم أبو ليدة ، رسالة ماجستير مقدمة إلى جامعة النجاح الوطنية ، نابلس ، فلسطين ، ٢٠٠٦ م : ٦٦ .

• الزمان والمكان في العصر الجاهلي :

إرتبط الإنسان في كل عصر وزمان بالمكان الذي يولد فيه ، أو الذي يكّون فيه ذكريات عزيزة أو يسكنه أناس أعزاء عليه ، ونما ذلك الإرتباط معه وترعرع ، والشاعر بوصفه إنساناً مبدعاً، يمتلك إحساساً عالياً بما حوله من أماكن ، فقد بدا ارتباطه أشد وأعمق من غيره من الناس ، وقد يرجع سبب ذلك إلى رهافة إحساسه ، وإمتلاكه الأدوات الفنية التي يستطيع من خلالها تصوير هذا الإحساس ، فتتكون صلة ذاتية تربط بين المبدع والمكان ، يتفاوت التعبير عنها قوة وضعفاً بحسب أمور،منها عمق الإرتباط وقدرات المبدع الفنية ، وهذه الفكرة في متناول أيدي الباحثين جميعاً .

وهناك جانب مهم جداً له علاقة بلا وعي الإنسان ، أي إنسان هو تجذّر الصلة بالمكان والشغف به في أعماقه ، وهذا ما يسميه علماء النفس " اللاوعي الجمعي " الذي يعد العامل الأساس في تشكيل ملامح السلوك لأمة من الأمم.

إن شواهد التعلق المبكرة بالمكان هو ما حفظه الأدب العربي من تغني العرب بالديار حتى صار ذلك تقليداً ومنهجاً التفت إليه الدارسون .

ولأن الشاعر ابن بيئته فالشاعر الجاهلي ابن الصحراء ، لقد حاكاها بشعره فاكتسب الشعر الجاهلي صفة المكانية عن جدارة ، وليس أدل على ذلك من أنهم أفتتحوا كثيراً من قصائدهم بالوقوف على الأطلال وبكائها .

(وتتراءى لنا مطولات الشعر الجاهلي في نظام معين من المعاني والموضوعات إذ نرى أصحابها يفتتحون غالباً بوصف الأطلال ، وبكاء آثار الديار ، ثم يصفون رحلاتهم في الصحراء ...ثم يخرجون إلى الغرض من قصيدتهم مديحاً أو هجاء وفخراً او عتاباً أواعتذاراً أو رثاء)[١].

---

١ – تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي ، ١٨٤ .

فكانت المقدمة الطللية من اروع المقدمات ، فقد عبر الشاعر فيها عن إنسانيته بارتباطه الوثيق بمكان معين ، فأثار ذلك الوقوف مشاعر متأججة في أعماقه جعلته يعود بالزمن إلى الوراء ، وتجتاح نفسه عاصفة من ذكريات عاشها مع من سكن تلك الديار ، فما كان منه إلا أن بكى وأستبكى ، وعانى من ألم الفراق ، والحنين إلى اللقاء.

(وارى أن بكاء الأطلال ليس عاطفة خاصة ، ولا تجربة وجدانية ، بل لحظة حزينة أملاها على الشاعر شعور الجماعة التي ينتمي إليها بالحرمان من الوطن المكاني ، وبالحنين إلى الاستقرار والمقام الثابت الذي يستطيع فيه أن يقيم بيتاً يخلد فيه ذكرياته ، ويسترجع ملاعب صباه)[١].

إن الوقوف على الأطلال وبكاء الأحبة الذين هجروا الديار كان شيئاً طبيعياً عند الشاعر الجاهلي ، فهو دائم الترحال مع قبيلته بحثاً عن الكلأ والماء ، ويترتب على هذا الترحال الدائم الإبتعاد عن الأماكن التي شكل فيها ذكريات جميلة ، فهي ذكريات الماضي الذي له سطوة وسحر على النفوس ، فالإنسان في الغالب يعشق الماضي بكل ما فيه ؛ وقد يرجع سبب ذلك إلى احتفاظه بالأحداث الجميلة في ذاكرته ، بينما يحاول أن ينسى أو يتناسى الذكريات الحزينة والمؤلمة هذا من جانب ، ومن جانب آخر فإن الإنسان دائم الخوف والتوجس من المستقبل الغامض بالنسبة له ، وهذا ما جعل الماضي الواضح يمتلك ذلك السحر والبريق .

ومن أهم الظواهر التي نجدها في شعر الأطلال هي محاولة الشعراء تحديد موقع الطلل من خلال ذكر اسمه إلى جانب بعض أسماء المواقع القريبة منه ؛ ذلك أن هذا الطلل موجود في الصحراء وهو مايتبقى من الديار ، ومعروف أن التعرف على موضع معين في مثل هذا المكان تكتنفه بعض الصعوبة ؛ لذلك

---

١ – الطبيعة في الشعر الجاهلي ، الدكتور نوري حمودي القيسي ، ط ١ ، الشركة المتحدة للتوزيع ، بيروت ، ١٩٧٠ م : ١٥٣ – ١٥٤ .

يعمد الشاعر إلى ذكر اسم الطلل وأسماء ما يجاوره حتى لا يدع مجالاً للشك بأن هذا الطلل الواقف عليه هو بعينه الطلل المقصود .

فهذا أمرؤ القيس في معلقته يعمد إلى تحديد مكان الطلل بكثير من الدقة فيقول:[١]

قِفَا نَبكِ من ذِكرَى حبيبٍ ومنزلِ بِسقطِ اللّوى بَينَ الدَّخُولِ فَحَومَلِ
فَتُوضِحَ فالمِقراةِ لم يَعفُ رَسمُها لِما نَسجتهَا من جَنُوبٍ و شَمأَلِ

فالشاعر في هذه المقدمة الرائعة يخبرنا بكثير من الإيجاز والبراعة عن موقع هذا الطلل فيقول : إن منزل الحبيب في موضع يسمى " سقط اللوى " يقع بين أربعة مواضع هي " الدخول" و " حومل" و "توضح " و " المقراة " ، وبعد أن ينتهي من مهمة تحديد الموقع يلقي علينا الحقيقة الماثلة أمامه من أن هذه الديار ، لم تندرس فهي واضحة المعالم برغم ما تعرضت له من رياح الجنوب والشمال .

إذن جاء الوقوف والبكاء عند الديار أولاً في معلقة أمريء القيس ثم جاء تحديد الموضع .

أما " طرفة بن العبد " فقد قدم تحديد مكان أطلال حبيبته وبيّن وضوحها قبل أن يقف عليها مع أصحابه الذين دفعتهم شدة بكائه إلى محاولة التخفيف عنه ومطالبته بالتجلد والتصبر على الفراق[٢] .

١- ديوان أمريء القيس وملحقاته، بشرح أبي سعيد السُّكري المتوفى "٢٧٥ " هجرية ، المجلد الأول ، دراسة وتحقيق د . أنور عليات أبو سالم ، د. محمد علي الشوابكة ، ط ١ ، مركز زايد للتراث والتاريخ ، دولة الامارات العربية المتحدة – العين ٢٠٠٠ م : ١٦٤ – ١٦٧ .

٢- فيقول في مقدمة معلقته :

لِخَولةَ أطلالٌ ببرقةِ ثهمَدِ تلوحُ كباقي الوشم في ظاهرِ اليدِ
وقوفاً بها صَحبي عليّ مطيّهَم يقولون لا تهلك أسى وتجلّدِ =

لقد قام الشاعر بتحديد مكان أطلال حبيبته " خولة " وهو " ثهمد " الـذي يخـالط أرضه حجارة وحصى مما يجعلها تلمع كما يلمع الوشم في ظاهر الكـف ، فهـي آثار واضحة ظاهرة ، ومن ثم انتقل إلى طلب الوقوف والبكاء .

أما الشاعر " زهير بن أبي سلمى " ، فنجده في مقدمة معلقته مع تحديد الموضـع الذي فيه الأطلال يخلع على المكان صفات إنسانية ، فهو يوجه سؤاله إلى المكان وكأنه إنسان يسمع ويفهم ، ويعجب الشاعر لأن المكان لا يكلمه ولا يرد عليـه ، وقد أخرج كلامه في معرض الشك ليوحي بذلك الشك ببعد عهده بالدمنة ، ومدى تغيرها حتى يكاد لا يعرفها معرفة قطع ويقين ، ومن ثم يقوم بتحديد دارها وهـي "بالرقمتين " ، وهي الأرض ذات الحجارة السوداء ، إحداهما قريبة من البـصرة والأخرى قريبة من المدينة [١] .

لقد قام الشاعر بذكر مواضع الطلل وهي : الدراج والمتثلم والرقمتان .

وشبه بقايا ديار الحبيبة بالوشم الذي أعيد وجدد ، للدلالة على وضوح ملامحهـا ، فلو وصفها بالوشم لدل ذلك على الثبات ، لكنة يراها واضحة كالوشم الذي أعيـد نقشه ليس على باطن اليد بل على ظاهرها زيادة في وضوحه في عين الناظر.

ونجد في الشعر الجاهلي كثير من الأمثلة للدلالة على ولع الشاعر بالمكان ، حتى أنه ارتبط في أغلب الأحيان بالمرأة ، فهي والمكان كثيراً ما كانت تتبادل الأدوار.

فالشاعر الجاهلي " عنترة بن شداد " في مقدمة معلقته يطرح سؤالاً هـو يعـرف إجابته جيداً ، إن الشعراء الأوائل لم يتركوا للأواخر شيئاً من ذكـر الأطـلال ، ويخاطب دار حبيبته ، ويطلب منها التكلم وكأنها تعقل ويدعو لها بطيـب العـيش

= شرح المعلقات السبع ، أبي عبد الله الحسين بن أحمد الزّوزنّي " ٤٨٦ " هجرية ، تقديم : عبد الرحمن المصطاوي ، ط ٢ ، دار المعرفة ، بيروت ، ٢٠٠٤ م : ٧١ .

١ – شرح المعلقات السبع : ١٠٩ .

أمن أم أوفى دِمنة لم تكلم بحومانةِ الدّراج فالمَتَثَلَّمِ

ودَارٌ لها بالرّقمتين كأنها مَراجيعُ وشم في نواشر معصمِ

والسلامة ، وهو في الواقع يطلب من " عبلة " أن تتكلم معه داعياً لهـا بطيـب العيش ودوام السلامة[١].

والشاعر في كل ذلك لم ينسَ تحديد مكان الطلل في " الجواء " أي الوادي حتى يوحي لنا بأن المكان واقعي غير متخيل .

وقد يكون الشاعر مشغولاً بقضية مصيرية ، ملكت عليه تفكيره وملأت نفـسه بالأسى والحزن ، كما هو حال " المهلهل بن ربيعة " ، الذي شغلته قضية مقتل أخيه " كُليب " ، فنراه يزجر نفسه عن الوقوف على الأطلال ؛ لأنه يستـشعر بأن الوقت ليس وقت بكاء على الأطلال ، وإنما هو وقت عمل والأخـذ بثـأر أخيه من قتلته [٢] .

فالشاعر ينكر على نفسه البكاء على الأطلال ، إذ بفقده أخاه أمتلأ قلبه بالحقـد والغل على من قتله ، فلم يعد في نفسه رغبة في بكاء الأطلال ، وفي البيـت الثاني يتساءل كيف يمكن للمرء أن يبكي الأطلال وهو أسير لوم الناس علـى مرّ الأجيال إذا لم يأخذ بثأر اخيه .

ونجد مثل هذا الإنكار عند الشاعر " عبيد بن البرص " ، لا لأن الوقت وقـت عمل وأخذ بالثأر ، بل لأنه قد كبر سنه وأصبح شيخاً، وغزا الشيب رأسه .[٣]

١- هل غَادَرَ الشّعراءُ مِن مُتَرَدَّمِ أم هل عَرَفتَ الدَّار بعدَ تَوَهّمِ
يادارَ عَبلَةَ بالجِوَاءِ تَكلّمي وَعِمي صَباحاً دارَعَبلَةَ واسلَمي=
- ينظر: شرح المعلقات السبع : ٢٠١ – ٢٠٢ .

٢ – ينظر : مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي ، الدكتور حسين عطوان ، د .، ط دار المعارف ، مصر ، ١٩٧٠ م : ٧٩ .

ازجُرُ النفس أن تبكي الطلولا إنّ في الصّدر من كُليبٍ غليلاً
ويقول :
كيف يبكي الطلولَ من هو رهنٌ بِطِعَانِ الأنامِ جيلاً فجيلا ؟

٣- بل ما بكاء الشيخ في دمنةٍ وقد علاه الوضح الشامل
ينظر : ديوان عبيد بن الأبرص ،شرح أشرف أحمد عدوة ، ط١ ، دار الكتاب العربي ،بيروت ، ١٩٩٤ م : ٩٢ .

يقول الشاعر : إنه يستهجن قيام رجل غزاه الشيب وصبغ رأسه بالبكاء وبث مشاعر الوجد واللوعة عند ديار الأحبة ، لأن في شواغل الدهر صارفاً له عن ذلك الهم ، إذ حفلت حياته بهموم أخرى تشغله منها قرب فراق حياته .

لقد تفنن الشاعر الجاهلي في نقل صورة المكان في مقدمته الطللية ، حتى أنه دقق في وصف كل جزء من أجزائه ، وهو في كل ذلك **(لم يكن يفرض إرادته الفنية على الأحاسيس والأشياء بل كان يحاول نقلها إلى لوحاته نقلاً أميناً ، يُبقي فيه على صورها الحقيقية دون أن يُدخل عليها تعديلاً من شأنه ان يمس جواهرها)**[١] .

كان هذا النقل الأمين لواقع المكان مليئاً بانفعالات الشاعر ، وانعكاسات نفسيته المفعمة بالحنين إليه ، فكان البكاء ملازماً للوقوف عليه ، وهو في رسمه لهذه الصورة بكلمات بليغة موحية كأنه يجتهد ليجعل نبض الحياة يسري في أرجائها **(وبذلك بثوا فيها كثيراً من الحيوية ، وما من شك في أن هذه الحركة مشتقة من حياتهم التي لم تكن تعرف الثبات والاستقرار ، فهم دائماً راحلون وراء الغيث والكلأ)**[٢].

وقد حفل الشعر الجاهلي بأسماء أماكن لا تعد ولا تحصى ، بذكر أماكن القبائل ، وقد استعار بعض الشعراء لذكر القبيلة ذكر المكان الذي تشغله ، وكان الشاعر " الأخنس بن شهاب التغلبي " من الشعراء الذين قرنوا عدداً من القبائل بأماكنها[٣].

ويمضي الشاعر في قصيدته يحدد أسماء القبائل العربية واسماء أماكنها ، ومن له معرفة بجغرافية الجزيرة العربية يتضح له بأن الشاعر **(قد خص القبائل**

---

١ – تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي : ٢١٩ .

٢ – المصدر نفسه : ٢٢٣ .

٣- وَبكرٌ لها ظَهرُ العراقِ وإن تشأ يَخُل دونها من اليمامةِ حاجبُ
وصارت تميمٌ بين قَفَّ وَرملَةٍ لها من حِبالٍ منتأى و مذاهِبُ

– ينظر : الإنسان في الشعر الجاهلي ، د . عبد الغني أحمد زيتوني ، ط ١ ، مركز زايد للتراث والتأريخ ، دولة الإمارات العربية المتحدة ، العين ،٢٠٠١ م : ٧٢ .

بأمكنة رحيبة ، ولم يقيدها بمواضع محددة ، مما يدل على أنها مهما تنقلت وارتحلت ، تعود في نهاية المطاف إلى موطنها)[١] .

وحتى لا يُتوهم أن حياة الجاهليين عبارة عن صحراء جرداء ، فقد ورد عنهم وصف الرياض ، (**ومن أجمل الصور التي رسمها الجاهليون للرياض ما ورد في معلقة عنترة في معرض التشبيب بعبلة ووصف ثغرها ...)** [٢]

أو روضةً أنفاً تضمّن نبتها غيثٌ قليلُ الدَّمن ليس بمعلمِ
جادت عليه كلّ عين ثرَّة فتركنَ كلّ قرارة كالدرهم .

لقد شبه " عنترة " في معلقته ، رائحة ثغر " عبلة " برائحة روضة بكر ، لم تطأها دابة تقضم أزهارها ، أمطرها السحاب مطراً نقياً ملأ غدرانها بماء صافٍ كدراهم سُكت من الفضة .

ولقد حرص الشاعر أشد الحرص في تصوير المكان على أن ينقل لنا إحساسه العميق بملاعب الصبا ، فرسم صورة واضحة عبر فيها عن حبه الجم للمكان ، ولم يفته أن يبرز أثر الزمان في هذه الصورة .

ومن الشعراء من عمد إلى تحديد المدة الزمنية التي مضت عليه منذ آخر مرة رأى فيها المكان ، الذي أصبح أطلالاً ، فحدد " زهير بن أبي سلمى " هذه المدة بثماني سنين [٣] .

١- الإنسان في الشعر الجاهلي : ٧٢ – ٧٣ .

٢- الأدب الجاهلي قضاياه . أغراضه . أعلامه . فنونه ، الدكتور غازي طليمان ، الأستاذ عرفات الاشقر ، ط ١ ، دار الأرشاد ، دمشق ، ١٩٩٢ : ٧١ .

٣- صحا القلب عن سلمى وقد كاد لا يسلو وأقفر من سلمى التعانيق والثقل
وقد كنت من سلمى سنيناً ثمانياً على صبر أمر ما يمرّ وما يحلو
- ينظر : الطبيعة في الشعر الجاهلي : ١٥٦ .

أما النابغة فقد وقف على الديار التي غيرها قِدم الزمان ، وكان للمطر المنهمر أثر في إنمحاء ملامحها ، وقف على هذه الديار يسأل عن " سعدى " بعد أن مرّ على فراقها سبع سنين [١].

ويقول في قصيدة أخرى إنه قد راوده الشك في هذه الآثار ، فالزمن يمرّ ويحمل معه ما يغير الديار من عوامل المناخ : كالرياح والمطر والسيول ، لكن التمعن بهذه الملامح جعله يعرفها على الرغم من مرور ستة أعوامٍ وهو الآن في العام السابع [٢] .

وقد يتحسر الشاعر على تشتت قومه ، ويبكي ماضيهم المجيد ، ويلقي باللوم في ما آل إليه وضع قومه على صروف الزمان مثل عبيد بن الأبرص [٣] .

وقد استعان " عبيد " ببعض المفارقات الزمنية في مقدمته الطللية ، كالرجوع بالزمان إلى الوراء وهو ما نسميه الإستذكار ، وقد كان هذا الإستذكار في متناول أيدي جميع الشعراء ، ولا يمكن أن نستثني منهم أحداً ، ونورد على سبيل المثال لا الحصر أبياته التي يقول فيها : [٤]

هَل اللّياليُّ والأيّامُ راجِعَةٌ أيامَ نحنُ وَسَلمى جيرةٌ خُلُطُ
إذ كُلُنا وَمِقٌ رَاضٍ بصَاحِبِهِ لا يبتغي بدلاً فالعَيشُ مُغتبِطُ

١- وقفت بربع الدار قد غير البلى معارفها والساريات الهواطل
أسائل عن سعدى وقد مر بعدها على عرصات الدار سبع كوامل =
- ينظر : الطبيعة في الشعر الجاهلي : ٢٦٣ .

٢- فمجمع الاشراج غيّر رسمَها مصايف مرَت بعدنا ومراجع
توهمت آياتٍ لها فعرفتها لستة أعوام وذا العام سابع
- ينظر : نفس المصدر : ٢٦٤ .

٣ - لمن الدّيَارُ بِبُرقَةِ الرَّوحَانِ ؟ دَرَسَت وغَيّرّها صُرُوفُ زمان
فوقفت فِها ناقَتي بِسؤالِها ، فَصَرَفتُ و العَينان تبتدِرانِ
- ينظر : ديوان عبيد بن الأبرص : ١٢٠ .

٤ - ديوان عبيد بن الأبرص : ٧٩ .

فالشاعر يتمنى أن يعود به الزمان إلى وقت كان هو وحبيبته سلمى جيراناً متعاشرين كلٌ راضٍ بحبيبه لا يبدل به غيره ، يظللهم العيش الرغيد الهانئ ، فهو يعود بخياله إلى زمن غير زمنه الراهن .

لقد شغلت فكرة الزمن الشاعر الجاهلي على طوال قصيدته ، فقد يهتم الشاعر الجاهلي بالزمن الذي لا يتوقف أبداً ، فتبدو سنين العمر آيلة إلى نفاد لا محالة فمن الشعراء من يتحسر على أيام شبابه ، أو يصف نفسه وقد كلل الشيب رأسه وضعف جسمه ، ونجد هذه الفكرة تتردد على ألسنتهم بكثرة [١].

لقد برع الشاعر طرفة بن العبد في تشبيه العيش ، أي سنين العمر بالكنز الثمين الذي يستهلكه صاحبه كل ليلة ، فلابد لهذا الكنز يوماً من نفاد ، فكذلك العمر ماضٍ إلى نفاد لامحالة .

(وقد تقرن مفردات الزمن بالمكان والمطر والحل والترحال ، وحين تحدث الشدائد فان العرب تقرنها بأزمانها ؛ ولذلك تكثر الشكوى من الزمن) [٢] .

لقد كان التحسر على الشباب من مقدمات الشعر الجاهلي ، وينسب بعض القدماء ابتكار هذا اللون من المقدمات للشاعر " عمر بن قميئة " ويقال إنه عاش عمراً طويلاً حتى بلغ التسعين [٣] .

---

١ – يقول طرفة بن العبد :

أرى العيش كنزاً ناقصاً كل ليلةٍ وَما تنقُصِ الأيّامُ والدّهر ينفَدِ

ينظر : شرح المعلقات السبع : ٩٥ .

٢ – الزمن عند الشعراء العرب قبل الإسلام ، عبد الاله الصائغ ، د. ط ، دار الرشيد للنشر ، الجمهورية العراقية ، ١٩٨٢ م : ٦٣ .

٣ – كأني وقد جاوَزتُ تسعين حِجّةً خَلعتُ بها عني عذار لجامي

على الرّاحتين مرةً وعلى العَصاً أنوءُ ثَلاثاً بعدَهُنّ قيامي

رمتني بنات الدَّهرِ من حيث لاأرى فكيف بمن يرمَى وليس برامي

– ينظر : الطبيعة في الشعر الجاهلي : ٩٨ .

في هذه الأبيات ينعى الشاعر شبابه الذاهب ويصف حاله في حركتــه ، فهــو زاحفٌ على راحتيه يتوكأ على العصا بعد أن كان منتصب القامة ، وقد وصف المصائب والنوائب " ببنات الدهر "، يرمينه بكل هذا الــضعف والمــرض ، وهوعاجز عن صد رمياتهن ، فقد ألقى الشاعر باللوم على الدهر لما اصــابه من هرم وقد بلغ التسعين من العمر.

(إن إحساسهم بالزمن قد ارتبط بإحساسهم بالموت والفنــاء، ولقــد كانــت حياتهم وبقاؤهم ، بمثابة الممكن الوحيد في مواجهة الفناء والمــوت الــذي يتهدد الأحياء جميعهم) [١].

ومما يزيد من حسرتهم على أنفسهم أن العمر ينفد والدهر باقٍ ، وهذا المعنــى نجده عند عدي بن زيد [٢] ، والمعنى نفسه نجده عند لبيد [٣] .

لم يتعامل الشاعر الجاهلي مع الزمن ، بروحانية فقد كان القليل من الــشعراء من يؤمن بالحياة بعد الموت ومن هؤلاء الشاعر " زهير بن أبي سلمى " ، إلا أن الغالبية منهم تنظر للحياة لمجرد الحياة ، ولا سبيل للخلود فيها.

(إن فقدان الإحساس بغائية الوجود جعل القلــق والخــوف مــن المــوت يسيطران على وعي الجاهلي بدرجة كبيرة ، ولهذا فإن القلق مــن المــوت أصبح قلقاً لاسبب له سوى الوجود نفسه) [٤] .

---

١ – الأدب الجاهلي ، قضايا ، وفنون ، ونصوص ، أ . د. حسني عبد الجليل يوسف ، ط ١ ، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع ، ٢٠٠١ م : ٣٠٢ .

٢– هل الدّهر إلا اليوّم أو أمس أو غد كذاك الزمان بيننا يترددُ
يرد علينا ليلة بعد يومها فلا نحن ما نبقى ولا الدهر ينفد
لنا أجل إما تناهى إمامه فنحن على آثاره نتورد

ينظر : المصدر نفسه : ٣٣٣ .

٣ – يومٌ إذا يأتي عليَّ وليلةٌ وكلاهما بَعدُ المضاءِ يعودُ
وأراه يأتي مثلَ يوم لقيته لم ينصرِم وضعفتُ وهو شديدُ

– ينظر : الزمن عند الشعراء العرب قبل الإسلام : ٦٩ .

٤ – الأدب الجاهلي ، قضايا ، وفنون ، ونصوص : ٣٣٣ – ٣٣٤ .

ومن كل هذه الأمثلة التي أوردناها وهناك الكثير ولا يتسع المجـــال لـــذكرها نجد الزمن الطبيعي في الشعر الجاهلي غزيراً ومتنوعاً .

وهنا يقفز إلى الذهن تساؤل عن الزمن النفسي ومدى معرفة الشاعر الجاهلي إياه .

إذا كان الشاعر قد عرف الزمن الطبيعي وذكره في مقدمة قـــصائده ، فهـــو يعرف الزمن النفسي ليس بالضرورة في إدراجه في المقدمة ، ولكن قد يكون في معرض حديثه عن الرحلة أو عن الغرض الذي من أجله كتبت القصيدة .

فالشاعر الجاهلي " المهلهل بن ربيعة " الذي قيل عنه إنه أول من قصد القصيد ، وقد كان الشعر قبله عبارة عن مقطوعات قصيرة ، عندما قتل اخوه " كُليب " كتب فيه شعراً ، وجاء وصف الليل بالطول مما يؤكد معرفته للزمن النفـــسي فقد (**كان قتل كُليب المعين الذي فاضت منه شاعرية مهلهل ، والمنبع الذي انبثق منه شعره ، فهو أول من وصف الليل بالطول هذا الوصف الذي جرى عليه الشعراء من بعده**)[١] .

وبذا علمنا بان الشاعر الجاهلي كان يعرف حق المعرفة الزمن النفـــسي الـــذي يطول في وقت الحزن والألم ويقصر في وقت السعادة والفرح ، وقد قرن الشاعر الجاهلي بين الزمن النفسي والليل ، وقد يرجع سبب ذلك لوجود بعض السلوى في النهار من طلب الرزق أو الخروج إلى الصيد مع بعض الرفقة ، فإذا ما جن عليه الليل شعر بالوحدة فكان الليل شديد الوطأة على نفسه ، فيبدو للشاعر كأنه لا ينتهي ، ويصف المهلهل بن ربيعة الليل فيقول :[٢]

وصار الليل مشتملاً علينا كأن الليل ليس له نهار
وبت أراقب الجوزاء حتى تقارب من أوائلها انحدار

١- الوصف في الشعر العربي الجزء الأول " الوصف في الشعر الجاهلي " ، عبد العظيم علي قناوي ، ط١ ، شركة ومكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، مصر ، ١٩٤٩ م : ٢٥٣ .

٢ – المصدر نفسه : ٢٥٣ .

وهكذا تبع المهلهل معظم الشعراء في وصف الليل بالطول وعدم الإنتهاء بما تكتنفه الهموم وتجتاحه الأحزان .

ويعد امرؤ القيس من أقدر الشعراء وصفًا لليل[١] .

حين يصف الليل فيشبهه بأمواج البحر المتلاطمة ، في هوله وصعوبته ، أسدل هذا الليل الرهيب على الشاعر ستور الظلام مع أنواع الهموم والأحزان ليبتليه ويمتحنه ، ومعروف بأن الابتلاء يعقبه إما صبر على الشدائد وإما جزع .

فخاطب الشاعر هذا الليل مخاطبة العاقل ، الذي يستجيب للنداء ، خاطبه بعد أن شعر بأنه يتمدد ويستطيل وبعد العهد بأوله ، وطالت أواخره ، خاطبه يأمره بالانتهاء والانكشاف بصبح ، وإن يكن هذا الصبح ليس بخير من الليل ، لأن الهموم قد ازدادت في قلب الشاعر حتى أصبح نهاره كليله ، وهنا نعرف بأن الشاعر لم يمتلك الصبر الكافي على الشدائد ؛ نتيجة هذه النظرة السوداوية التي تجتاح نفسه ، فهذا الوصف الرائع الذي يقل نظيره لليل لابد من أن يكون ليلاً نفسياً ، فالليل الطبيعي عند كل الناس يستغرق وقتاً محدداً ، لكن إحساس الشاعر جعله ليلاً لا نهاية له وهو زمن نفسي بكل ما تحمله الكلمة من معنى .

وبذلك فتح الشاعران الباب أمام كل الشعراء بعدهما لتصوير هذا الزمن النفسي ، كلٌ حسب حالته النفسية وحسب قدراته الفنية .

(لم يكن الزمان واحداً في القصيدة الجاهلية ، بل كان المرآة التي تعكس هموم الشاعر وبيئته وطاقته الإبداعية ، وقد يكون الزمان نعيماً أو جحيماً ، وقد يكون بطيئاً أو سريعاً وليس ثمة تناقض ناسخ للتجربة ، فكونه نعيماً لا يلغيه جحيماً ،

---

١ – ولَيلٍ كَمَوجِ البَحرِ ارخَى سدوله علىّ بأنواعِ الهمومِ ليَبتَلي
فَقُلتُ لَهُ لمّا تَمطّى بصُلبِهِ وأردَفَ أعجازاً وَناءَ بكَلكَلِ
ألا أيّها اللّيل الطّويلُ ألا انجلي بصُبحٍ وَما الإصباحُ مِنكَ بأمثَلِ

– ينظر : ديوان أمرؤ القيس وملحقاته : ٢٣٩ – ٢٤١ .

وكونه بطيئاً لا يمنعه سريعاً فكل صورة للزمن تلخص صورة الشاعر ضمن تجربته ، وتلخص نظريته التي تمثل نزوعه ولغة خياله ووجدانه)[١].

ومن كل ذلك نستنتج بأن الشاعر الجاهلي عرف الزمن النفسي مثلما عرف الزمن الطبيعي.

١- الزمن عند الشعراء العرب قبل الإسلام : ٣٧٣ .